

# منهج ابن خلدون في إصلاح العملية التعليمية

د. رقية طه جابر العلواني

كلية الآداب

جامعة البحرين

## مقدمة

شهدت الأعوام الأخيرة جهوداً واسعة لإصلاح التعليم، وتضافرت الدعوات في مختلف الدول لإصلاح النظم التعليمية، وضرورة استناد العملية التعليمية إلى تقويم يكشف عن عناصر القوة والضعف في النظم المطبقة. والتراث العربي والإسلامي لم يخل من الاهتمام المتواصل بالعملية التعليمية وإصلاحها في القديم والحديث.

وقد برز في هذا المضمار عدد من الأعلام من أمثال الفزالي وابن سينا وغيرهما، ويُعد ابن خلدون واحداً من أبرز العلماء العرب الذين قدموا للفكر التعليمي الإصلاحي مقدمات منهجية لا غنى للباحث في إصلاح العملية التعليمية عنها، خاصة أنها جاءت متسمة بالواقعية، والبعد عن التصورات النظرية، والاهتمام بالربط بين التعليم والدور الوظيفي له في الحياة.

ولم تنحصر إسهامات ابن خلدون في توصيف الطريقة المتبعة أو المنهج فحسب، بل تعرض إلى أبعاديات المنهج والممارسات التربوية المختلفة بفكر نقدي واقعي يتجاوز لأطر معارف زمانه وعصره. فالتعليم في الفكر الخلدوني عملية اجتماعية في مضمونها وجوهرها وأهدافها ووظيفتها، ولا يمكن فصلها عن المجتمع، وهي تدبر عن حاجة الأفراد وحاجة المجتمع.

ولسنا نعهد للدعاء أن ابن خلدون هو مؤسس علم التربية، أو علم التدريس، بقدر ما نريد الكشف عن الارتقاء الذي وصل إليه النهج الخلدوني في التعليم، ونقاط الالتقاء بين الأفكار الخلدونية ومبادئ وأسس التعليم الحديث.

وهذه الورقة تروم الوقوف على أبرز معالم ومضردات المنهج الخلدوني في إصلاح العملية التعليمية، كما تحاول تقديم مقترحات لمراجعة واقع العملية التعليمية اليوم من خلال النظر والإفادة من منهج ابن خلدون، بالمقارنة مع المعطيات التربوية الحديثة عن القيم والأهداف ومحتوى التعليم وجودته وطرائقه

وقدرة على التجديد... وليست الطاقة الذهنية في حدودها الضيقة القائمة على مجرد حفظ المعلومات والمعارف.

والناظر في التاريخ الإسلامي القديم والحديث يجد كمّاً هائلاً من الأدبيات التي تناولت هذه المسألة من زوايا متعددة. وتزداد أهمية الرجوع إلى هذه الأدبيات في الوقت الراهن؛ إذ إن عملية الإصلاح ينبغي أن تنبثق من داخل المنظومة القيمية للأمة وواقعها لا من خارجها، مع إمكانية الاستعانة ببعض الآليات اللازمة في المسائل الفنية والتكنولوجية من الخارج.

فالاعتماد على الخبرات الأجنبية في إصلاح التعليم واستزراعها دون تقييم أو تحليل ونقد لما فيها، أمر له محاذير عدة؛ فمناهجهم وخبراتهم نتاج بحث لواقعهم الغابر لواقعنا وأصوله وقيمه. ويبقى التعليم في أساسه صناعة وطنية قومية، وهذه الصناعة تستفيد من منجزات الحضارة الإنسانية لتحسين إنتاجها الوطني القومي، وليس لفرسها لكي تنتج صناعة جديدة في بيئة غير مواتية<sup>(١)</sup>.

### المبحث الأول: سمات المنهج الخلدوني في إصلاح العملية التعليمية

#### أولاً: الواقعية

يشتمل المنهج الخلدوني بالواقعية والبعد عن المثالية المبنية على تصورات نظرية. وعناية ابن خلدون بموضوع التربية، ليست عناية الباحث النظري، الذي لا شأن له بالتطبيق العملي، بل كان يمارس ذلك كل يوم في حلقات الدروس في الكتابات والمدارس. فقد عمل بالتدريس في تونس ثم رحل إلى القاهرة عام ٧٨٤هـ بعد مناعب صادفته في تونس، واشتغل بالتدريس مرات كثيرة حتى توفيه في مصر

(١) - ينصرف سبيل عن حامد عمار، مرجع سابق، ص ٧.

(٢) - عبد الرحمن بن خلدون، التوفيق بآداب خلدون ورحلته غرباً وشرفاً، تحقيق: محمد بن ثابت الطنجي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥١م، ص ١. نقل عن: عبد الله الأمتي، المناهج وطرق التعليم عند الفلاسفة وابن خلدون، مركز جهاد، ١٩٨٠م، ص ٢٤.

وأساليبه وخصائص المعلم ومؤهلاته في فكر بعض رواد الإصلاح التعليمي في الوقت الحاضر وخاصة البروفيسور الشهير. MORTIMER J. ADLER

### مقدمات معرفية

تتناول هذه الدراسة قضية الإصلاح في العملية التعليمية ومُراد بالإصلاح: العمل على تصحيح الأخطاء وحل المشكلات المتعلقة بسيرة العملية التعليمية في محاولة للوصول إلى أحسن المستويات. والناظر في مختلف الأيديولوجيات والنظريات التعليمية التي وُجِدت في التاريخ البشري، يلحظ أنها تمثل تصوراً لإصلاح التعليم وتعمل على تطبيق ذلك التصور إن تسنى لها ذلك.

ومما لاشك فيه أن هناك حاجة حقيقية في كلّ منهج بشري إلى إعادة النظر فيه بين الحين والآخر، لتقويمه مرحلياً (Summative Evaluation) بحساباته منهجاً وضعه بشر، وتم تقديمه في ظرف معين، لمعالجة مشكلات محددة، أو توجيه تعاليم، أو زرع سلوكيات. والتعليم ليس بدءاً من تلك المناهج التي تحتاج إلى المراجعة والإصلاح والتغيير بين الفينة والأخرى، خاصة في ظل الظروف الراهنة التي يمرّ بها العالم.

وهذه حقيقة دعا إليها أهل الفكر والذكر من علماء الأمة مؤكدين أن لا صلاح للتعليم إلا بإحداث تغييرات جذرية في بناء هيكل التعليم واعتماد خطة الإصلاح على تنمية مختلف المهارات للمتعلم، والاهتمام بإعداد المعلم وتكثيف الإنفاق على التعليم<sup>(١)</sup>.

فالإنسان هو المورد البشري الأهم في عملية التنمية اللازمة، والإنسان له مصادر ومؤثرات ومقومات لنشأته وتربيته، والتعليم يقع في قلب تلك المؤثرات. ومن هنا كانت أهمية الاهتمام بتعليم الإنسان وتنمية كل طاقاته بكل ما فيها من ابتكار

(١) انظر ما كتبه على سبيل المثال: حامد عمار، شيخ التربويين العرب في لقاء معوم، التعليم في الوطن، مجلة المعرفة، عدد (١١) - شباط ١٩٩١هـ - ديسمبر ١٩٩٠م.

الكتائب، فيصفها العلامة ابن خلدون بقوله: «فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصاص على تعليم القرآن فقط، وأخدمهم أثناء المداينة بالرسوم ومساكنه واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء، من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه»<sup>(٧)</sup>

وتتضح أهمية هذه السمة في إصلاح العملية التعليمية اليوم، حيث تعددت الدعوات المطالبة بإصلاح التعليم في بلادنا، الأمر الذي يستدعي ضرورة الالتزام بالأصالة والانتقاء من القيم الأصلية للدين المتمثلة في الكتاب والسنة الصحيحة في عمليات الإصلاح والتغيير، حيث إن استزراع المناهج الإصلاحية المختلفة دون الاهتمام بالفوارق الجوهرية والأسس النبوية لها، أمر لا يخلو من مخاطر عديدة كما سبقت الإشارة إليه.

## المبحث الثاني: إصلاح المنهج التعليمي في الفكر الخلدوني

### ومقارباته الحديثة

#### التمهيد

يراد بالمنهج التعليمي: الأداة الفاعلة في تحقيق أهداف التربية الرامية لبناء الإنسان وتنمية قدراته المختلفة ومهاراته واكتسابه طرق التفكير؛ ولذا حُدَّ المنهج الترجمة الفعلية لأهداف التربية وتوجهاتها في المجتمع.

فالمنهج بمعناه الحديث: مجموعة الخبرات المتنوعة التي تقدمها المؤسسة التعليمية إلى الطلبة داخلها وخارجها؛ لتحقيق النمو الشامل المتكامل في بناء الفرد، وفق أهداف تربوية متعددة، وخطة علمية مرسومة جسمياً وعقلياً ونفسياً

(٧) - مصدر سابق، ج ١، ص ٤٣٨

عام ٨٠٨ هـ يقول في ذلك: «ولما دخلتها أقمت أياماً وانتال على طلبة العلم بها يتقنون الإفادة مع قلة البضاعة ولم يوسعوني عدداً فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها»<sup>(٨)</sup>

ومما أسهم في تكريس واقعيته في مسألة الإصلاح التعليمي، تنقله في عدد من بلدان المغرب والأندلس واحتكاكه بالعلماء والأدباء في مختلف الفنون والعلوم. فقد اكتسبته هذه الرحلات والجولات فرصة الاطلاع على التعليم وأحواله في بلدان مختلفة، كما وفرت له سبل الاتصال بعدد من العلماء؛ مما أسهم في وقوفه على الكثير من مناهج التعليم وأصاليه في مختلف الأقطار التي عاش فيها وتنقل بينها. وقد اتضح ذلك في ملاحظاته ومقارناته بين مذاهب التعليم في الأمصار الإسلامية<sup>(٩)</sup>

## ثانياً: الأصالة

لاحظ ابن خلدون أن المناهج والبرامج المتبعة في زمانه، ليست في حالة اعتدال، سواء في صورتها أو مادتها، لإهمالها كثيراً من المبادئ الخالدة التي جاء بها الإسلام، فهو يرى أن تبدأ العملية التعليمية بتعليم القرآن؛ وفي ذلك دلالة واضحة على أصالة المنهج الإصلاحي في الفكر الخلدوني، فهو فكر منبثق من مناهج القرآن والسنة.

يقول في ذلك: «اعلم أن تعليم الولدان للقرآن، شعار الدين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبني عليه ما يحصل بعد من الملكات، وسبب ذلك أن التعلم في الصغر أشد رسوخاً، وهو أصل لما يمدد: لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى الأساس وأساليبه يكون حال من يبني عليه»<sup>(١٠)</sup> وأما طريقتهم في تعليم الصبيان في

(٨) - المصدر السابق، ص ٢٤٨

(٩) - جند الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م، ج ١، ص ٥٢٧.

(١٠) - المقدمة، مصدر سابق، ج ١، ص ٥٢٧.

### أولاً، أهداف العملية التعليمية

لا ينبغي أن تنصرف أهداف العملية التعليمية إلى تكوين المعرفة فحسب، بل ينبغي أن تمتد لتشمل جميع جوانب السلوك الإنساني. وتؤكد هذه الأهمية لأهداف التعليم في عصرنا الحاضر المتمم بالانفتاح على ثورات المعلومات، والاتصالات، والتقنية، والإعلام... الأمر الذي يستلزم من العملية التعليمية الإسهام في تكوين شخصية ثقافية مؤهلة، تحسّ وتقتن التعامل مع أدوات العصر الراهن، مؤهلة اختصاصياً وتربوياً وتقنياً.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن إشكالية تحديد أهداف التربية العامة لا تزال حاضرة في مدارس التربية الحديثة. وقد استعرض العالم (رونالد كوروين) تفاصيل الخلاف حول تحديد هذه الأهداف عند علماء التربية والاجتماع؛ فبعضهم يرى حصرها في مجرد التحصيل الذهني، ويرى آخرون ضرورة تركيزها على الارتباط بين قاعدية التربية والنجاح الوظيفي، ويرى فريق ثالث أنها ينبغي أن تنصرف إلى تطوير استقلال الشخصية والدقة في العمل والتكيف مع متطلبات

التغير التكنولوجي والبراغماتية النفسية.<sup>(١١)</sup> إلا أن ابن خلدون في منهجه التعليمي يقدم أهدافاً واضحة تنشأ من صميم حاجة الفرد والمجتمع، فقد اهتم ابن خلدون بالتواحي الاجتماعية في كتاباته، واعتبرها مصدراً تشق في ضوءه الأهداف التربوية للتعليم.

وهذه اللفتة المنهجية الخلدونية تتأكد الحاجة إليها في مجتمعاتنا التي يخضع النشء فيها لمؤثرات عقلية وذهنية وقيمية تتعلق جميعها بنمط تربوي يبيد عن هويتها الأم. فالتدخل السافر في تشكيل العقلية الشبابية في مجتمعاتنا، يفرض على المؤسسات التعليمية والتربوية بناء تربية مستقلة تحافظ على هوية النشء

11- Ronald G. Corwin. Education in Crisis. gohn Wiley & Sons inc. New York. 1974. p. 13.

### إصلاح العملية التعليمية واجتماعياً ودينياً. (٨)

وهذا التعريف - الذي تبهناه هذه الدراسة- يتخذ مجالاً أوسع من الاتجاهات التطبيقية التي ترى المنهج منبئاً على المعرفة فقط. (٩) الأمر الذي يجعل من المنهج مرادفاً في مفهومه للمقررات الدراسية، ويحدد دور المعلم بنقل المعلومات والشرح والتفسير والتوضيح فحسب.

فالمفهوم الضيق للمنهج التعليمي يهمل النشاطات المختلفة التي تتم خارج قاعة التدريس، ويحصر التعلم بين دفتي الكتاب المقرر دون الاهتمام بمحاولة مساعدة المتعلم على تفهم بيئته ومشكلاتها، أو تنمية توجهاته الضمنية والاجتماعية المسيرة لمجتمعه وواقعه المعاش.<sup>(١٠)</sup>

من هنا كان النظر في المنهج التعليمي يشمل قدرة المنهج على تحقيق أهداف التعليم التي ينبغي أن تكون سابقة لعملية وضع المناهج وتوصيفها، واستراتيجيات التعليم، ودور المعلمين والمتعلمين، وابن خلدون تعرض لهذه المستويات بأسلوب انقسم بالإيجاز والعمق في آن واحد.

وقد خصص ابن خلدون الباب السادس من مقدمته المشهورة، للبحث في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، وسائر وجوهه وتعرض لاختلاف الأمصار الإسلامية في طرق التعليم.

ويمكن تقسيم المنهج الخلدوني في إصلاح العملية التعليمية على النحو الآتي:

(٨) - تنصرف عن فحفي بونس وآخرين، المناهج الأسس، المكتبات، التظاهرات، التطوير، دار الفكر، الأردن، ٢٠٠٤، ص ١٧.

٩ - يعد المنهج في الاتجاهات التطبيقية مقتصر على المعلومات والمعارف التي تدعى للتعليم داخل القاعات الدراسية، أما ما عدا ذلك من لوجه النشاطات المختلفة الضرورية لتنمية المهارات، فلم تعد ضمن المنهج، انظر سرحان الدمرداش، ونفيس كامل، القاهج، دار الينها للطباعة، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، ص ٤-٨.

١٠ - حول الانتقادات الموجهة للتربية التقليدية للمنهج، انظر المرجع السابق، ص ١٦.

والفارق بين المنهج الخلدوني والمناهج الحديثة واضح تماماً، فالمؤسسات التربوية الحديثة لم تحلل بأفراز الإنسان المتصف بالضوابط الأخلاقية القيمة بقدر ما ركزت على تعامله وفق مصالحه ورغباته بصرف النظر عن المنظومة القيمية الأخلاقية.

والملاحظ أن هذه الإفرازات قد تسربت إلى كثير من البلدان العربية اليوم، يقول في ذلك الدكتور عمار: «ارتبط التعليم بالشهادة التي تقبس ما حصلته الإنسان من معلومات، وأصبحت الشهادة هي صاحبة الحق في منح المواطن عملاً معيناً. واقتصرت الشهادة كذلك على أن قدرأ معيناً من المعرفة يحفظه الإنسان يجيز له الالتحاق بعمل معين، على حين أن الإنتاج لهذا العمل يحتاج إلى قيم منها المثابرة والبذل والتضحية، وكل هذه القيم غير واردة في مناهج تعليمنا بالوطن العربي.... بل تقتصر عملية التعليم على حفظ المعلومات ومنح شهادات تقوم المواطن بما حصل من معلومات، ومن ثم فإن الجوانب الأخرى مهمة تماماً، ولا بد أن تأخذ مكانها في نظمنا التعليمية سواء كانت رياضية بدنية، أو تربوية روحية واجتماعية، أو تربوية سياسية وثقافية، وبدون ذلك فإن جهود تعليمنا في التكوين السليم والصحيح لشخصية المواطن العربي لن تؤدي إلى النجاح المطلوب»<sup>(١٦)</sup>.

#### - الإعداد العقلي

من أبرز مهام المؤسسة التعليمية في الوقت الحاضر إعداد الفرد فكرياً وعقلياً، وتنمية قدرات المتعلم العقلية على التفكير العلمي، بحيث يصبح قادراً على حل المشكلات التي تواجهه والربط بين الظواهر واستخلاص القوانين التي تحكمها. وتعد تنمية العقل من أبرز وسائل التنمية البشرية.

(١٦) - حامد عمار، مرجع سابق، ص ٥.

إصلاح العملية التعليمية  
ونعملية تفكيرها.

ويمكن إجمال أهداف العملية التعليمية في المنهج الخلدوني فيما يلي:

#### - الإعداد الأخلاقي

يؤكد ابن خلدون أهمية التربية الدينية التي هي أصل الإعداد الأخلاقي للمتلم، ويرى ابن خلدون أنها ينبغي أن تبدأ منذ مرحلة الطفولة، ويرى أن تعليم الأطفال للقرآن الكريم من أولويات التربية، فالقرآن هو أصل التعليم الذي ينبغي عليه ما يحصل بهد من الملكات، باعتبار أن تعليم الصغر أشد رسوخاً.

ويهتم ابن خلدون بتكوين العادات السلوكية والقيم الفاضلة؛ ليكون الخلق جبلة وطبيعية لدى الفرد، يقول في ذلك: «إن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه في الأحوال صار خلقاً وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة»<sup>(١٧)</sup>.

وقد تناولت الفلسفات التربوية الحديثة هذه الناحية وأشيعتها دراسة ما بين التجاهل: تمثل الأول في الفلسفة البراغمية التي رأت أن رغبات الفرد فضائل في حد ذاتها، وله الفرصة في ممارسة ما يشاء منها، والثاني الذي رأى في الفضيلة إبداعات عقلية تترك للفرد نفسه.

ويواجه المختصون أزمة في تحديد الحد الأدنى للأخلاق، ويرى (جون وايت) أن يترك للفرد تحديد مستوى الأخلاق التي يمارسها، فإذا تعارضت المصلحة الفردية مع الحد الأدنى للأخلاق، فللفرد أن يهبط بالحد الأدنى إلى درجة الصفر، ويرى وايت أن هذه التربية الأخلاقية ستكون عند قطاع كبير من سكان الأرض.<sup>(١٨)</sup>

(١٧) - المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٤.

13- John White, The aims of Education, Routledge and Pual London, 1982. p.80-86.

وتعد عملية الإعداد العقلي في غاية الأهمية في تكوين الجدية التي تتألف التشدد، فالعقلانية تجعل الإنسان يتروى ويصبر ولا يستعجل في اتخاذ القرار. كما أن معرفة دور العقل واتخاذ الجدية التي تتألف التشدد، من الأمور المهمة في الجوانب التربوية.

وهذه اللفتة التربوية في غاية الأهمية اليوم حيث تحول التعليم ومؤسساته في كثير من الأحيان إلى مواقع خلفية تتعبد فيها الحرية، وتقتل فيها روح المبادرة والإبداع والتدريب وتشكيل المهارات، فالنظام التعليمي لا ينبغي أن يكون قائماً على حفظ المعلومات وتخزينها، بل ينبغي أن يسعى إلى تشجيع المهارات التفكيرية، التحليلية والتركيبية، وتوجيه هذه المهارات باتجاه البحث الفردي، مراعياً للضروقات الفردية، كل حسب قدراته وإمكاناته. فالتعليم ليس تحفظاً كما أن التعلم ليس حفظاً. وإنما هو على جانبيه أعمال للقدرات العقلية وكسب للزمن من أجل التمكن من المعرفة في هذا الحقل أو ذاك.

إن وقوف مؤسسات التعليم بمستوياتها عند القدرة على الحفظ والاستظهار، وقصورها عن العمليات العقلية، يفرز آثاراً سلبية منها:

- عجز الخريجين عن التفاعل والتفاهم والحوار مع أطراف المجتمع وشرائحه المختلفة، فالنقاش والتحليل والحوار يتطلب مهارات عقلية لا يمكن تلمينها من خلال الاكتفاء بقدرة الحفظ فحسب.
- عجز الخريجين عن الاحتفاظ بهويتهم أمام التيارات الوافدة ورياح العولمة العاقية.
- عجز الخريجين عن مد الجسور بين الأصالة والمعاصرة والتفاعل بين الماضي والحاضر. (١٥)

١٥ - مصروف كبير، عن: ماحد عروسان الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد، المود العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ١٩٩٧ م، ص ١٠٦.

العملية التعليمية  
ومن الإنصاف القول بأن المؤسسات التعليمية في الغرب تقدمت تقدماً حوطلاً في ميدان دراسة القدرات العقلية ومجالات تلمينها، وقطعت شوطاً هائلاً في توظيف القدرات العقلية للمتعلمين بما يناسب الثورة العلمية والتفجر المعلوماتي لعرف في المهول.

ومن الاتجاهات التربوية الحديثة في هذا، تنمية الإعداد العقلي عن طريق:  
- تلمين مبدأ التعلم الذاتي والتعلم المستمر، للملاحقة لتحديات عصر انفجار المعلومات والتطور السريع اللازم له.

- تنمية قدرة التعلم على الربط بين ما يتعلمه داخل المؤسسة التعليمية ومشكلات واقعه الحقيقي خارجها، وهو ما يعرف اليوم بالتعلم الواقعي

Authentic Learning.

ويظهر المنهج الخلدوني متقدماً من خلال ملائحته لأحدث الإسهامات التربوية في الإعداد العقلي للمتعلم، بل وسبقه لها، ولكن دون الدخول في تفصيلات كبيرة كما هو الشأن بالنسبة لمعصرنا الحالي الذي تشعبت فيه التخصصات.

فقد ذهب ابن خلدون إلى أهمية الحوار والجدل والمناظرة بين المعلم والمتعلم، فالحوار يساعد على تفنيد الذهن واتساع المدارك وفك عقال اللسان الذي يكون بواسطته نقل العلم. كما اهتم ابن خلدون ببيان أدوات المعرفة كالحواس والتجربة ودورها في تنمية القدرات العقلية، كالتأمل العقلي والتجربة والملاحظة.

بل إن ابن خلدون اهتم بتحديد مستويات العقل البشري بالتمييزي والتجريبي والنظري، فليس المهم عند ابن خلدون معرفة القواعد والقوانين والاصطلاحات في حد ذاتها، وإنما المهم القدرة على استخدامها والاستفادة منها عملياً أي التطبيق. من هنا كان تفريقه بين صناعة اللغة التمثلة في قواعد وقوانينها واصطلاحاتها وبين ملكة اللغة.

كما ركز ابن خلدون على وسيلة تعلم الحساب ففي صنفه «تصرف في العدد بالضم والتفريق» وصنعة تحتاج إلى الكثير من البراهين والاستدلالات. من هذا التحليل يستنتج ابن خلدون أن الكتابة تقوي النظر العقلي، وأن الحساب يقوي العقل (العمليات الذهنية الصورية أو الشكلية أو المنطقية) لهذا يجب الاهتمام بتعليمهما<sup>(١١)</sup>.

ويمكننا التأسيس على هذا بأن كل علم أو مهارة يمكن أن تنمي القدرات العقلية لدى المتعلمين، ينبغي الاهتمام بها والحرص على تهيئتها لهم في إطار المؤسسات التعليمية المختلفة، كدراسة الحاسوب في عصرنا وغيرها من آليات حديثة.

### ثانياً، استراتيجيات العملية التعليمية

#### الاستراتيجية الأولى، الطريقة التعليمية

نرى ابن خلدون على طريقة التفريق والاعتماد على التعليم الكمي والتركيز على حجم المعلومات التي تنساب في أذهان المتعلمين. ويرى ابن خلدون أن التركيز ينبغي أن ينصرف إلى بناء التفكير الصحيح ولومع علم قليل.

يقول في ذلك: «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله، ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفقه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفى الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من

لقد طرح ابن خلدون نماذج عملية لتكريس القدرات العقلية وتنميتها، ومن ذلك تركيزه على الاهتمام بالكتابة والحساب، بوصفها مقومات للتربية العقلية وتنمية القدرات الفكرية، ويؤكد ابن خلدون أهمية تعليم هاتين الصنفين كونهما مفيدتين للعقل، فالكتابة تتضمن «انتقالاً من الحروف الخيلية إلى الكلمات اللغوية في الخيال؛ ومن الكلمات اللغوية في الخيال إلى المعاني التي في النفس؛ ويكون ذلك دائماً فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى الدلالات، وهو معنى النظر العقلي الذي يكتسب به العلوم الجاهولة فتكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل»<sup>(١٢)</sup> ويحصل به مزيد فطنة وكسب في الأمور، لما تعودوه من ذلك الانتقال.

إن تكرار هذه العملية الذهنية المتضمنة في الكتابة «من الحروف المرسومة إلى منطوق الحروف المرسومة، ومن منطوق الحروف المرسومة إلى الصورة الذهنية أو المعنى، والعكس صحيح» يكون ملكة الانتقال السريع بين الدوال والدلالات. هذه الملكة تزيد العقل تعقلاً وفطنةً وذكاءً، وما طرحه ابن خلدون قبل عدة قرون، يقارب إلى حد كبير ما أشار إليه التربوي العالمي J. MORTIMER<sup>(١٣)</sup> وأكد في مقالاته ومؤلفاته حول تطوير فن تعليم القراءة والكتابة وقوانين ذلك وأثارها في التعلم، ومنها قوله:

One learns to write and read only by performing these acts, but since reading and writing are intellectual arts, the habits must be formed under the discipline of rules of art; moreover, intellectual habits cannot be formed intelligently unless the rules themselves are understood (18)

(١١) - المقدمة، مصدر سابق، ج ١، ص ١٦٩.

(١٢) - جالم أمريكي مدوني مشهور في مجال تطوير التعليم والعلمية، ولد عام ١٩٠٩، وتوفي عام ٢٠٠٠م ويعد من أبرز التربويين الذين كان لهم أكبر الأثر في تطوير التعليم وإصلاحه في أمريكا في القرن العشرين. فتنشأ بالتدريس في كثير من جامعات أمريكا وعمل إدارياً فيها الأمر الذي جعل كتاباته تقسم بالواقعية في تناوله لفساد إصلاح التعليم. عمل في تحرير ومراجعة الأوسعة البريطانية الشهيرة، ألب عدداً حائلاً من الكتب والمقالات في مجال تطوير التعليم منها: أزمة التعليم، إصلاح التعليم، إصلاح العملية التعليمية، كيف نتعلم وكيف نتدرب، كيف نقرأ كتاباً، فكرة الحرية، وغيرها كثير. انظر ترجمته في الموسوعة البريطانية على موقعها الإلكتروني.

(18) Adler, Mortimer J. "Britannica Student Encyclopedia". 2006. Encyclopædia Britannica Premium

Social - Mortimer J. Adler, THE CRISIS IN CONTEMPORARY EDUCATION, The Frontier, February, 1939, Vol. V, No. 42, pp. 140

ويرى ابن خلدون أن التعليم يعني توصيل الحقائق المعرفية بين طرفين، و يقف بعض الوقت عند نوعين من صيغ التوصيل: الصيغة الشفافية التي تتم مباشرة بين العلم والتعلم، والصيغة الكتابية التي تتم بشكل غير مباشر بينهما من خلال الكتب والمؤلفات. وهذه الصيغة هي أكثر ذيوياً وانتشاراً؛ فالكتاب المنهجي أكثر دواماً وأكثر قدرة على الانتشار.

ويتخذ ابن خلدون طريقاً وسطاً إزاء الكتاب التعليمي يتميز بالمرونة، ويهتم بما يعرف اليوم بتكنولوجيا التعلم، والقدرات النفسية للمتعلم. وعلى هذا رفض ابن خلدون مفهوم الإكثار من التأليف وتحمل المناهج التعليمية المزيد من الكتب التي تعالج موضوعاً واحداً، لما يترتب عليه من إرباك ذهن الطالب وتضييع الوقت فيما لا مبرر له.

ويرى ابن خلدون بهذا الطرح إلى المستويات الحديثة التي تفرض على مصممي المناهج ضرورة التفريق بين الضروريات والكماليات العلمية، وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بالبسيط وبالمركب، وذلك بقوله: «ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب، والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركب هو الذي يختص بالكماليات. والتقدم منها في التعليم هو البسيط، لبساطته أولاً، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوافر الدواعي على نقله»<sup>(٢١)</sup>.

ويواصل ابن خلدون نقده لعمليات الحشو والتكديس في التعليم حيث يقول: «هذا وجه التعليم المفيد وهو - كما رأيت - إنما يحصل في ثلاثة تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يُخلق ويتيسر له، وقد شاهدنا كثيراً من المتعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المفصلة من العلم، وبطالبيونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رعى ذلك وتحصيله.

(٢١) - المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠٠.

لاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجد ملكته. ثم يرجع به وقد شدا يترك عوصاً ولا مبهماً ولا مطلقاً إلا وضحته وفتح له مقفله؛ فيخلص من الفن استولى على ملكته»<sup>(٢٢)</sup> من هنا كان اهتمامه بالتركيز على الفهم وأعمال من وتشغيل قوى الخيلة، أكثر من شحن الذاكرة.

وواقع التعليم عندنا اليوم يقوم في كثير من الأحيان على التكديس والحشو تقليد والدوران في عقل السابق، بعيداً عن تنمية روح الإبداع والكشف والملاحظة تجربة والتبصر واكتشاف الخطأ وبناء الشخصية الاستقلالية. فالتعليم عندنا محور حول التلقين والحفظ وشحن الذاكرة بعيداً عن التفكير والمقارنة والتمييز تنمية التفكير. على حين أن الذاكرة والحفظ أولى وظائف العقل، والتفكير لقياسة والمقارنة أعلى مراتب التفكير، فالإصرار على الحفظ والذاكرة يعني توقف عند أولى مراتب العقل، وعائفاً يساهم في طرد أصحاب العقل والتفكير؛ من الذي يستدعي أهمية مراجعة كافة الوسائل التعليمية والقرارات ذات الصبغة تنظيمية في محاولة لحل هذه الأزمة تدريجياً.

### لاستراتيجية الثانية: محتوى المقرر التعليمي

يعتبر ابن خلدون التعليم من (جملة الصنائع)، وهو فن لا بد من الإلمام أصوله وقواعده؛ لكي يتمكن المعلم الذي يمارسه من تادية مهمته على الوجه المطلوب.

وإبن خلدون يعرف كيف يرتبط بين ما يبلغه فن التعليم من مستوى وبين بيئة الحضارية التي ينشط فيها. فالعلاقة بينهما طردية، وحينما بلغت جماعة ما شأواً متقدماً في المضمار الحضاري تقدم معها فن التعليم ونسق سوقه.

(٢٢) - المقدمة، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٢٢.

لاستعداد التعلم وقدرته، فهو ينظر إلى التعليم نظرة تقنية تصبو إلى تحقيق المكة في أقصر وقت، وبأقل العلوم الضرورية دون الإبحار في عمق العلوم الأدائية.<sup>(٢١)</sup>

ويطرح ابن خلدون في هذا السياق أهمية تحديد الأصول والإجراءات التي تتخللها المرحلة التعليمية من خلال استنباط العلم بموضوعه، وتقسيم أبوابه وفصوله، وتبعية مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للمسلم المحقق، ويحرص على إبعاده بغيره، لئلا ينفذ به. وهذه المراجعة تعد من أهم إشكاليات إصلاح العملية التعليمية التي تقرض نفسها بشدة في الوقت الحاضر المتمثلة في الانفجار المعرفي والحاصل والتحديات الكبرى الناجمة عنه.

من هنا جاء وصف ابن خلدون لمن يتصدى لهذا العمل «بالعلم»، فاستنباط علم ما من معارف كثيرة يتطلب عملاً مضمناً وفكراً متقدماً. ويرى ابن خلدون أن ذلك الاستنباط يستدعي مراحل أخرى كثيرة، منها التقسيم والتبويب.

وإبن خلدون من خلال هذا التوصيف العميق الموزع إنما يتحدث عن مرحلة إعداد المقررات، التي ينبغي أن تبدأ من القاعدة وصولاً إلى القمة، فهي ليست عملية تقليد أو نقل أو استزراع لمقررات من بيانات مختلفة. من هنا يتحتم على مصممي المقررات في كل عصر، القيام بعمليات مراجعة وتدقيق في محاولة لتدارك ما وقع في المقررات من أخطاء، أو تجاوزات.

وهذا أمر واضح المعالم حاضر الأهمية في كثير من مقرراتنا الدراسية، الأمر الذي يستدعي اتخاذ إجراءات عدة للمراجعة والتصحيح. ويعبر عنه ابن خلدون بمصطلح دقيق وهو نظم تلك العلوم، حيث يقول: «أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى، فينبغي بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجميع مسائله، فيفعل ذلك، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتجها البشر بأفكارهم».<sup>(٢٢)</sup>

(٢١) - المقدمة / مصدر سابق ج ١ ص ٤٠١

(٢٢) - المقدمة / مصدر سابق ص ٢٠

يختلطون عليه بما يقوّن له من غايات الفنون في مبادتها، وقيل أن يستند لغيرها، لئلا يقول: لا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على تعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم، مبتدئاً كان أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه، يستولى منه على ملكة بها ينفذ في غيره؛ لأن التعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استند بها لقبول ما يتي. وما يشير إليه ابن خلدون هو ما يمكن تسميته بترتيب الأولويات في العملية التعليمية، ومعرفة ما ينبغي منحه أولوية لتدريس في مرحلة معينة، ممّا ينبغي تأجيله إلى مراحل لاحقة وفق أهداف العملية التعليمية، وهو أمر ينبغي مراعاته والاهتمام به عند وضع المقررات المختلفة.

وقد تبنيت نظريات التعلم الحديثة إلى هذه الحقيقة العلمية فاعتبرت لدخل الهرمي Hierarchical Approach الذي وضعه (روبرت جانييه) من أبرز وأهم مداخل تنظيم المحتوى؛ حيث يتم تنظيم محتوى المقرر على شكل هرمي تدرجي يبدأ بالمستوى الأبسط إلى الأكثر تركيبياً وتعقيداً.<sup>(٢٣)</sup>

ويتقسم ابن خلدون العلوم السائدة في عصره إلى قسمين رئيسيين:

**القسم الأول:** علوم مقصودة لذاتها، ويُعبّر عنها بالعلوم النظرية كالعلوم الشرعية.

**القسم الثاني:** علوم غير مقصودة لذاتها ويُعبّر عنه بالعلوم العقلية، كاللغة العربية والحساب والمنطق، وهي آلات لغيرها من العلوم المقصودة لذاتها. ويرى ابن خلدون أن التوسع ينبغي أن يكون في القسم الأول، يقول في ذلك: «وهكذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو...» وهكذا ينتقد ابن خلدون بشدة الوسائل السائدة في عصره التي تم فيها التركيز على العلوم الآلية وفروعها دون مراعاة

(٢٣) - المصدر السابق ج ١ ص ٥٢٢

(٢٤) - فني بوش وأخرون، مرجع سابق ص ١٠٢-١٠٤

يفي عمره بما كُتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها، فيقع القصور<sup>(٢٦)</sup>. وحرى بنا أن نتبنى مقولة ابن خلدون هذه في تصميم مناهجنا ومقرراتنا اليوم. فمن كابد اختلاف المؤلفات والمقررات، يدرك أهمية كلام ابن خلدون.

من هنا كانت مهمة مصمم المقرر لا تقتصر على مرحلة الإعداد، والاكتفاء بتصميم الأطر الكبرى لتأليف المادة العلمية أو تنقيح المصطلحات، أو إبانة بعضها أو الشرح والتفسير، بل تمتد لها إلى مرحلة التقويم، من خلال التدقيق والتحخيص، وتحلية المعارف التي يتضمنها.

يقول ابن خلدون في ذلك: «يعثر المتأخر على غلط أو خطأ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله، ويعد في الإفادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التأليف في الآفاق والأعصار، وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمسارقه، فيودع ذلك ليوقف على بيان ذلك».

وفي المقابل لا يعتبر ابن خلدون أن التعليم القائم على الاختصاصات هو البديل، بل يرى أن كثرة الاختصاصات مخلة بالتعليم، ويعزو ذلك إلى أنها تخل بالتبليغ (البلاغة، العلاقة التواصلية بين المرسل والمتلقي، المعلم والمتعلم)، وتجعل الفهم أسعر، فضلاً عن أنها تستيق المراحل النهجية، وتلقي الغايات على المبتدئ في التعلم قبل أن ينضج لتلقيها وفهمها. والنتيجة أن «الملكة الخاصة من التعليم في تلك المختصرات، إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة على الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة»<sup>(٢٧)</sup>.

نستنتج من كلام ابن خلدون ثلاث مراحل للتعليم: مرحلة الابتداء، ومرحلة التعمق، ثم مرحلة «استكمال الخبرة» ونشير هنا إلى أن ابن خلدون لم يفته أن ينبه

٢٦ - المقدمة، مصدر سابق، ج ١، ص ٥٢١.

٢٧ - المقدمة، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ويطرح ابن خلدون آلية التلخيص والاختصار في المقررات التعليمية، من خلال ربط الأصول المتخبة بعضها ببعض، فبدون ذلك، تظل الأصول متفرقة، ومفتقرة إلى صياغة مضامينها، بما يجعلها كلاً واحداً ذا انسجام علمي وترتيب معرّج، لتناسب مرحلة توظيفها وظروف استعمالها، وهذا ما يعبر عنه ابن خلدون بالتلخيص. وهو يعني الإقاء مسائل ذات صيغة عامة ومجملّة من كل باب تكون هي الأصول مع أخذ المستوى العقلي للمتعلم بعين الاعتبار ومراعاة استعداداته لقبول ذلك العلم. والهدف من هذا الإلقاء الأولي هو تحصيل المتعلم للكرة جزئية وضمنية تساعد على ولوج العلم أو الفن المدروس وتحصيل مسائله.

وهذا الأمر ينبغي مراعاته عند وضع المناهج والمقررات وتصميمها، فلكل مقرّر مراجعه المختلفة، المتباينة في مستوياتها من حيث المادة العلمية وبساطتها. والسبيل الأمثل للإفادة منها هو تلخيص ما فيها دون إخلال بمآذنها العلمية، «أن يكون الشيء من التأليف التي هي أمهات للفنون مطوّلاً سهلاً، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك، بالاختصار والإيجاز وحذف التكرار، إن وقع، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول».

ويرى ابن خلدون أن إغفال ذلك، يمكن أن يفضي إلى مزالق تعليمية خطيرة، ينتج عنها مقلّات أخرى لا تتناسب مع طبيعة المرحلة المرادة، أو الحشو الذي لا طائل من ورائه، ممّا ينتج عنه ضرورة المراجعة الدائمة للمقررات وتقويمها.

ومن الإشكاليات التي تعاني منها المقررات التعليمية اليوم، كثرة المؤلفات وتعدد طرق وأساليب المصممين لها وتكرار الجهود. فكل الرغم من أهمية المعرفة الموسوعية والفزارة المعرفية، لا تتناسب في واقع الأمر مع جميع المراحل والمستويات. ويشير ابن خلدون إلى ذلك بقوله: «اعلم أنه ممّا أضّر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف، واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها. ولا

أولاً: تأهيل وتطوير المربين بما يتناسب مع الطرح القديم؛ لأن فاقده الشيء لا يعطيه، ولأن هناك خلافاً في هذا الجانب، كان لابد من العمل على إقامة مؤسسات تأهيل تخرج، أو تنيد تأهيل أو تطور المربين والمربين والعلميين والمعلمين الذين يقومون على العملية التربوية.

لقد أدرك ابن خلدون أهمية المعلم في إنجاح العملية التربوية، وأن إصلاح المناهج يفقد أهميته إذا لم يتوافر المدرس الكفء، الذي يشترط فيه: أن يكون المعلم متمكناً من العلوم والفنون التي يتصدر لتدريسها، مستوعباً لتفاصيلها وفروعها، وأن يكون ملماً بمبادئ فن التعليم، حتى يتمكن من التأثير في طلبته ومعاملتهم بحسب ما يلائمهم في الجوانب المعرفية والسلوكية.

ومن أهم ما يحتاج إليه في ذلك: معرفة أساليب التفهيم، وفهم نفسية المتعلمين، وحسن التنزل لهم، والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد بهم، حسب درجتهم واستعدادهم.

وقد سبق ابن خلدون في ذلك النظريات التربوية الحديثة التي أكدت أهمية مراعاة التعلم وظروفه ومقدرته.

ثانياً: انتقد ابن خلدون عدداً من الممارسات التربوية الخاطئة التي يقوم بها بعض المربين والمدرسين وممارستهم للتسلط وتكريس السلبية في أذهان المتعلمين. ومن القضايا التي تنتج من تبذ التسلط من قبل الربى تعليم وتربية الأجيال على نبذ النطق والتخفيف من قيود التشدد المنبوء، ويكون ذلك باتخاذ التوسط والاعتدال منهجاً للحياة العلمية والثقافية والعملية أيضاً.

وعقد في مقدمته فصلاً في أن الشدة على المتعلمين مضرّة بهم، أشار فيه إلى الأضرار الخطيرة التي تعود على الفرد في مرحلة الرشد، وعلى المجتمع بأسره نتيجة الشدة والتعنيف في تأديب الولدان في الصغر، وما ينجر عنها من فساد وسوء

إلى أن تحصيل ملكة قوية ليس بالضرورة مرتبطاً بهذا الترتيب (التسلسل)، بل يمكن تحصيل ملكة قوية دون حاجة إلى هذه المراحل.

ويقترّب البروفيسور (مدير) من أفكار ابن خلدون في هذه النقطة بالتحديد، ويمكن إيجاز موقفه في هذا بتأكيد أن التربية مستمرة وليست جرة تعطى مرة واحدة وإلى الأبد، بل هي بحاجة إلى الاستمرار؛ لأن العلم لديه دائماً شيء جديد يوافينا به. وأن طريقة التدريس الملائمة هي التي تتمتع على الحوار وحل المشكلات و التعلم الذاتي. ويرى البروفيسور أن المناهج المدرسية يجب أن تواكب التغيرات التي تحصل في الحياة، فالمنهاج يتغير والأهداف تتغير والطرانق تتغير. (٢٨)

### الاستراتيجية الثالثة: إعداد المعلمين

يقدم ابن خلدون مادة طيبة في هذا المجال، مؤكداً حتمية وجود (المعلم) كطرف أساسي في العملية التعليمية، سواء استهدفت تخريج العلماء أو الصناع. (٢٩) ليس المعلم فحسب ولكنه المعلم الحاذق القادر هو المطلوب لتحقيق النتيجة الفضلى، ونجد ابن خلدون يركز المسألة بمبدأ واضح بسيط، ولكنه ضروري، إنه على قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون التعلم، وهكذا يحتل المعلم مكانه المناسب. ويذهب ابن خلدون إلى أن المهمة التي يمارسها المعلم ليست عملاً مستقلاً بذاته، فهو يحتاج إلى عوامل مساعدة كما يحتاج إلى زمن. ولا تنحصر مهمة المعلم في تعليم هذا الجانب أو ذاك فحسب من أمور المعرفة، بل تمتد لكي تشمل الجوانب كافة، أي ما هو علمي وما هو عملي في الوقت نفسه.

وقد تفرض ابن خلدون لعدد من القضايا المتعلقة بالمعلمين ودورهم في العملية التربوية، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:

(28) Mortimer J. Adler, THE CRISIS IN CONTEMPORARY Education the Social Frontier February 1939 vol.v no.42 pp 140 - 14s.

## الاستراتيجية الرابعة، التعليم المهني

اهتم ابن خلدون في منهجه التعليمي بالعلوم الصناعية، مؤكداً أنها لا بد أن تركز على الفكر، فالعلم شيء أساسي للتقدم الصناعي وازدهاره، والعلوم الصناعية في الفكر الخلدوني تعتبر من أهميات الصناعة، وهو ما يعبر عنه في وقتنا الحاضر بالعلوم التطبيقية والمهنية.

ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى نوعين من الصناعة: البسيط والمركب. فالبسيط وهو الضروري كالزراعة والبناء والتجارة. والمركب وهو الجانب الكمالي كالوراقة ونحوها<sup>(٣٢)</sup>.

والجدير بالذكر أن منظمة اليونسكو دعت إلى عقد مؤتمر دولي حول التعليم الفني والتدريب، يهدف إلى معالجة المسائل المطروحة. وقد عقد المؤتمر في برلين- ألمانيا، حيث اتفقت الدول الأعضاء على وضع خطة عمل دولية للتهوض بالتعليم الفني والمهني وتطوير أسس التعاون الدولي في هذا المجال بحيث لتضطلع بهذه المهمة وكالة جديدة أطلق عليها برنامج الأمم المتحدة للتعليم المهني يونيفو (UNEVOC)

ومن أبرز ما دعا إليه المؤتمر ضرورة ابتكار الطرق والأساليب، وتحسين نظام التعليم الفني والمهني في الدول المعنية. كما أكد أهمية توفير التعليم المهني القوي العاملة المؤهلة ضمن سوق العمل دائمة التغير، نتيجة للتطور التقني المستمر. لقد كانت سياسات التعليم الفني والتدريب في السابق تهدف إلى تطوير كفاءات ومؤهلات الخريجين حتى يتمكنوا من الالتحاق بالوظائف. وهم أكثر قدرة على الإنتاج، ولكي يصبح مواكباً للتقدم التقني ومنافساً للآخرين في مجالات العمل ينبغي أن يكون متابعاً وعلى اتصال دائم بحقول التعليم والتدريب، علاوة على

(٣٢) - المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠٠.

خلق وتعود على الكذب والخيث والمكر والخديعة<sup>(٣٣)</sup>.

ويحلل ابن خلدون بأسلوب يرقى إلى التحليل النفسي الدقيق ظاهرة العنف بسلبياتها بقوله: «ومن كان مرباه بالسف والقتل من المتعلمين أو المالكين أو لخدم، سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعا ذلك إلى الكسل، وحمله على الكذب والخيث، وهو النظار بغير ما في ضميره، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة خلقاً، وفقدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتعدن، وهي الحماية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فالتفتت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين»<sup>(٣٤)</sup>.

ولا يقل الطرح الخلدوني الجريء لدور المعلم وأهمية ابتعاده عن ممارسات لتسلط والقهر الفكري عما طرحه البروفيسور (ميلدر) حين انتقد مختلف لممارسات القهرية التي يمارسها بعض المدرسين على تلامذتهم من خلال فرض لحقيقة الأحادية التي لا تقبل نوعاً ما من الحوار والنقاش، كما أشار إلى آثار تلك لممارسات السلبية في واد الحريات الفكرية.

"... teachers who expect students to accept what they tell them simply because they occupy the position of teachers"

(٣٣) - المقدمة، مصدر سابق، ج ١، ص ٥١٠.

(٣٤) - المقدمة، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(32) Mortimer J. Adler, Teaching, Learning, and Their Counterparts

,http://www.dilex.com/adler/lc.html

(٣٥) - المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠٠.

- الاهتمام بالتعليم الأولي، وهو ما يعبر عنه في وقتنا الحاضر بالابتدائي، فهو قاعدة الهرم التعليمي وأساس البناء التعليمي، من هنا كان اهتمام ابن خلدون بتعليم الصبيان وتركيزه عليهم في غاية الذكاء والعمق الواقعي. فالاهتمام بالتعليم الابتدائي تنعكس آثاره على التعليم الثانوي والإعدادي والجامعي كذلك.

- الاهتمام بالتعليم المهني والتدريب والربط المتواصل بين التعليم التطبيقي والفكري.

مجلة العملية التعليمية

ذلك، يجب أن يسمى بصفة مستمرة إلى البحث وتقصي المعلومات، واستيعاب المعارف الجديدة والإمكانيات الحديثة التي تتدرج تحت دائرة تخصصه، إضافة إلى التدريب الذي أصبح يمثل عنصراً حيوياً في سياسات توظيف الماهلين. بل إن هناك مؤسسات تستثمر في تدريب الموظفين، حيث إن عملية تطوير مواردها البشرية يتيح لها فرصة أكبر للمنافسة. (٢١)

وما طرحه المؤتمر المذكور يقارب ما أشار إليه ابن خلدون منذ عدة قرون حين طرح أهمية تعلم الصناعات وكيفية تعلمها، مبيناً أن الحذق والمهارة في الصناعة لا يمكن أن يتم إلا بالمازولة والممارسة الفعلية أو ما يعرف بالتدريب اليوم. يقول في ذلك: «ونقل الماينة أوعب وأتم من نقل الخبر، والعلم والملاكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملاكة الحاصلة عن الخبر». (٢٢)

ويمكن إيجاز خطوات إصلاح العملية التعليمية في منهج ابن خلدون على النحو الآتي:

- إجراء عمليات المراجعة والتدقيق والتصحيح باستمرار: للتعرف على مناطق القوة والضعف في مسار التعليم.
- إصلاح المعلم والاهتمام بإعداده من أهم الخطوات الإصلاحية، فالتعليم لا ينبغي النظر إليه كمصدر للرزق أو الكسب فحسب، بل هو بالدرجة الأولى رسالة لا بد أن يستثمر أهميتها القائمون بها. من هنا كانت مواصفات المعلم ينبغي ألا تحصر في الشهادات الجامعية فحسب، بل لا بد أن تمتد لتشمل كافة قدراته العلمية وقدراته الأخلاقية والروحية والثقافية، وقدر من الوعي الكافي بما يدور في مجتمعه والعالم من حوله.

(٢١) - تقرير عن التعليم والتدريب المهني في أوروبا مع بداية القرن الحادي والعشرين، المؤلف: مجموعة من الباحثين والمختصين بالشؤون التربوية، الأمم المتحدة للتعليم، باريس، إصدار عام ١٩٩٨م، عرض وتقديم: عبد الله بن محمد الهويش نائب مدير إدارة البحوث في المؤسسة العامة للتعليم، والتدريب المهني بالرياض.

(٢٢) - المقدمة مصغر سابق، ج ١، ص ١٠٠.

والبحوث في هذا الميدان.

- المقارنة بين المنظور التعليمي الخلدوني ونماذج الوسائط التعليمية الحديثة .تكشف عن تناظر قوي في المفاهيم يكاد يصل إلى حد الزعم بأن المنهج الخلدوني كان رائد النسق الإصلاحي التعليمي.
- إعادة النظر في المناهج والعملية التعليمية من أهم أسباب التطور الفكري لدى الأجيال، وتعد من ضرورات المرحلة الراهنة. وهي عملية تراكمية في غاية الأهمية والضرورة، تستدعي تشكيل عدد من اللجان المختصة في مختلف الكليات والأقسام المختلفة.

## خاتمة الدراسة

حاولت هذه الدراسة الكشف عن أبرز معالم ومفردات المنهج الخلدوني في إصلاح العملية التعليمية، كما حاولت تقديم مقترحات؛ لمراجعة واقع العملية التعليمية اليوم من خلال النظر والإفادة من منهج ابن خلدون، بالمقارنة مع بعض المعطيات التربوية الحديثة عن القيم والأهداف، ومحتوى التعليم وجودته وطرقه وأساليبه وخصائص العلم ومؤهلاته.

وقد أسفرت الدراسة عن جملة من النتائج من أبرزها:

- تأكيد اشتغال المنظور التعليمي الخلدوني على أفكار أصيلة ومتقدمة قياساً بالحقبة التاريخية التي ظهر فيها (١٢٢٢-١٤٠٦م). فعندما كتب ابن خلدون ما كتبه لم تكن قد ظهرت للوجود لا سوسيولوجيا ولا سيكولوجيا ولا ديالكتيك ولا أهداف سلوكية ولا غيرها لكنه على الرغم من ذلك كله، انتقد الكثير من وقائع التعليم الخاصة في عصره بروح نقدية فريدة في طرحها وسبقها المربي.

- نظريات ابن خلدون في التربية والتعليم شملت جانباً كبيراً من النظريات المعاصرة، فما ذكره ابن خلدون يصلح ليكون محوراً لفلسفة تربوية عربية مشتركة، لأنه انطلق في نظرياته من بيئة عربية إسلامية تحتكم إلى العقل والمنطق وعلوم النفس في مناقشة ومعالجة قضاياها.

- ابن خلدون أعطى للعلم والتعليم الدور الوظيفي الذي يؤديه في الحياة، فهو يقوم بدور بنائي تكويني عن طريق اكتساب العقل الفريد، وتكوين الملكة عن طريق الربط بين التعليم والممارسة، وهو أمر تزداد الحاجة إليه اليوم.

- موضوع التعليم عند ابن خلدون لم ينل الاهتمام الكبير من قبل الكثير من الباحثين التربويين على الرغم من أهمية الأفكار التعليمية الواردة في المقدمة، وذلك بالنظر إلى قوتها وتماسكها المنطقي، وكذا بالنظر إلى تعبيرها وأسبقيتها وفاعليتها في الوقت الحاضر. الأمر الذي يتطلب إجراء المزيد من الدراسات

